٩٩/١٩/٤/٢٨

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢٦٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

مجلّة الإنماء العربي للعلوم الانسانيّة

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

الفكر العربي

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عبّاس — د. شكري فيصل
الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدّي — رئيس التحرير
د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيّد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القوميّة للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٤٠٨

الجماهيرية العربيّة الليبيّة الشعبيّة الاشتراكيّة

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الاستشراق (*)

ادوار سَعيد

مراجعة د. فايز ترحيني

تقذف المطابع العربية والأجنبية، يومياً، الكثير من المؤلفات، منها ما يذهب جفاء، ومنها ما يمكث في الأرض، وميزان ذلك «الفعل وردّة الفعل». فالفعل يتمثل بغنى الكاتب الفكري، وسعة اطلاعه والتحوّل الذي تحدثه أفكاره في المجتمع. نقول «التحول»، لأن ثمّة مؤلفات تحدث شرخاً في تفكير القارىء، وتحثه على الرودان وطلب المزيد من المعرفة والاطلاع ليستقر على قرار. وردّة الفعل تتمثل بالضجّة الفكرية التي يحدثها ذلك الأثر، إيجابية كانت أم سلبية. وبقدر اتساع الفعل وردّة الفعل وعمقها، وبقدر تفاعل الآراء حولها يكون الكاتب حقق بعضاً من أهدافه.

نقول ذلك، ونحن أمام كتاب «الاستشراق» للدكتور ادوارد سعيد، ففعله كان فعل الزلزلة الفكرية، لما أثار من آراء، وإن لم تكن جديدة كل الجدّة[1]، فإنها تشكل معلمة فكرية متكاملة، ينبغي التمعُّن فيها ودراستها بعمق وجدّية، بغية رصد خيوط «المؤامرة» التي يحيكها لنا الغير، من خلال انكبابهم الدؤوب على معرفتنا. وردّة الفعل عليه كانت متعددة[2]، بمستوى الأفكار التي طرحها الكاتب بصراحة وعمق قلما يجرؤ عليها الآخرون. ويكفي أن نذكر أن الكتاب صدر بالانكليزية وتُرجم إلى تسع لغات ـ هي: الفرنسية، الالمانية، الاسبانية، الايطالية، التركية، الفارسية، الماليزية، اليابانية والعربية ـ في أقل من ثلاث سنوات.

وقبل أن أجري حرفاً على طرس ـ في صميم موضوعي ـ أشير إلى الصعوبة البالغة، وتجدني أقول الاستحالة التي تعترض سبيل القارىء، الذي يود الكتابة على مؤلّف الدكتور ادوارد سعيد. ولا يعود ذلك إلى تعثر في منهج الكاتب، أو سوء في أسلوب المترجم، أو قصور في استيعاب القارىء ـ وإن كنا نعترف بأنّا ما زلنا طلاباً وسنبقى ـ وإنما يعود إلى ذلك الحشد الهائل من الأفكار التي يواجهك بها المؤلف، فيتعذر عليك الاختيار؛ فتعود ـ بعد مطالعتك للكتاب ـ أشدّ حاجة إلى المعاودة والتكرار. فالكتاب إذن بحاجة إلى قراءة عمقية متأنية، ويجب أن يترجم إلى لغات العالم كلها، ليعيه كل ذي نطق ويستوعبه. لذلك، سيندرج عملنا في إطار المحاولة التي نرجو لها النجاح، علماً أن الجزء لا يغني عن الكل، وأن الفرع لا يلغي الأساس، وهذا من المسلمات.

يتألف كتاب الدكتور ادوارد سعيد من مقدمة وثلاثة فصول، ويخلو من خاتمة، بالإضافة إلى مقدمة للمترجم، وكشاف لبعض مصطلحاته وهذه سنؤخر الكلام عليها

(*) سعيد (ادوارد): «**الاستشراق**»، ترجمة كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١ م، (٣٦٦ صفحة).

لأنها شيء عارض وليست في الأساس.

من البواعث المباشرة على تاليف الكتاب، كما فهمنا من مقدمته، عبارة كتبها صحفي فرنسي يصف فيها الوسط النجاري في بيروت إبّان الحرب الآهلية، يقول: «لقد بدت ذات يوم كأنها تنتمي إلى شرق شاتوبريان ونرفال».

وهنا نظن أن الدكتور سعيد ساءل نفسه: هل يفهم الشرقي عموماً ـ والعربي خصوصاً والفلسطيني بالتحديد ـ حقيقة ما تعنيه عبارة «شرق شاتوبريان ونرفال»؟. ولما كان جوابه بالنفي، شرع في رحلته الكتابية مع الاستشراق، وإن كان بدأها قراءة وتقميشاً قبل ذلك.

في المقدمة يعاين القارىء الشرق، كما عرفه المؤلف في نهم الغربيين: «اختراع غربي... ومكان للتجارب الاستثنائية»، بالإضافة إلى أنه «جزء تكاملي من حضارة أوروبا وثقافتها الماديتين». وللاستشراق في فهمه صور ودلالات كثيرة، أهمها: الدلالة الجامعية الاكاديمية، أو وظيفة القيام بالاختصاصات المتنوعة والدراسات المتشعبة، وغايتها «التعبير» عن الشرق و«تمثيله» بما يخدم مصالح الغرب ومخططاته.

وفيها أيضاً، يعرض المؤلف موضوعات كتابه، فمنها ما يعنى بدراسة أثر الاختصاصات على الشرق، ومنها ما يحاول الكشف عن الخطط التي انتهجها المستشرقون لشرقنة الشرق والسيطرة عليه سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وعقائدياً وعلمياً وتخيلياً. ويوضح أن الاستشراق مشروع تضم أبعاده عوالم متباينة تباين الخيال نفسه، والهند وشرقي المتوسط بأكملهما، ونصوص الكتاب المقدس وأقاليمه، وتجارة التوابل والجيوش الاستعمارية، والتراث الطويل من الاداريين الاستعماريين، وقدراً ضخماً من تراث البحث، وأعداداً لا تحصى من الخبراء والمساعدين، وجهاز أستاذية شرقية، وكوكبة من الأفكار الشرقية، وعدداً كبيراً من الملل والفلسفات والحِكَم الشرقية المدّجنة للاستخدام الاوروبي. وبالإضافة الى ذلك، يميز المؤلف بين المعرفة الخاصة والمعرفة السياسية، ويولي المسألة المنهجية، والبعد الشخصي لعملية الاستشراق اهتماماً خاصاً، مدركاً بأن المجتمع والثقافة الأدبية لا يمكن أن يُفهما أو يُدرسا إلاّ معاً. كل هذه الأمور يحاول المؤلف أن يجلو غوامضها في فصول كتابه.

والفصل الأول من الكتاب المترجم إلى العربية، وهو بعنوان «**مجال الاستشراق**» يشغل الصفحات (٦١ ـ ١٣٣)، ويشمل الأقسام التالية: ١ ـ التعرُّف إلى الشرق. ٢ ـ الجغرافيا التخيلية وتمثيلاتها: شرقنة الشرق. ٣ ـ مشاريع. ٤ ـ أزمات.

بادىء ذي بدء، يشير المؤلف إلى محاضرة ألقاها بلفور في مجلس العموم البريطاني سنة (١٩١٠ م)، وبلفور الذي يمثّل نموذجاً لحكّام الغرب، يربط بين المعرفة والقوة. فالمعرفة تمنح القوة، ومزيداً من القوة يتطلّب مزيداً من المعرفة، والمعرفة في نظره تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها. لذلك انكب الاوروبيون منذ عصور سحيقة على دراسة الشرق والشرقي وكأنهما في قاعة تدريس، أو محكمة، أو سجن، أو في دليل موجز لأغراض التحليل العلمي. وهذا يعني أن الشرقي اعتبر شيئاً يُدرس ويؤدّب ويُحاكم ويُوضّح. والأمم الشرقية عند بلفور، لم تؤسس من منطلق «حكم الذات»، لأنها غير قادرة على ذلك، مما يحتم على المستشرقين أن يحكموها ويمثلوها ويعبّروا عن آرائها وتطلعاتها. وهذا يستلزم ضرورة احتلال أوروبا للشرق. فاحتلال بريطانيا لمصر، مثلاً، هو «الأساس الفعلي» للحضارة المصرية المعاصرة، ويكفي أنها أعادت للمصريين اعتبارهم كبشر، عندما أقرّت أنهم سكان لمستعمرات منتجة. فالدراسة الاستشراقية كانت مثقلة منذ البدء بالشعور بالفوقية والدونية، أو الشعور بالتمييز السلالي أو العرقي إذا جاز التعبير. وهذا النوع من الفهم كان عاماً في أوروبا، تأثر به حتى أكثر الكتاب روعة خيال، أمثال: فلوبير ونرفال وسكوت. وهؤلاء خضعوا لضوابط مقيدة في ما يمكن أن

يقولـوه عـن الشرق. لأن الاستشراق في الأسـاس رؤيـا سياسية للواقع، رؤيا روَّج المستشرقون بنيتها ليفرّقوا بين المألـوف (أوروبـا، الغـرب و«نحن») وبين الغـريـب (الشرق، المشرق و«هم») حسب تعبير المؤلف. وهذا يعني أن تلك الرؤيا خُلقت أولاً، ثم أصبحت واقعاً يعيشه المستشرقون ويألفه الشرقيون. وبعد حين، غدا كل من الرؤيا والواقع متممين لبعضهما البعض، يمنح أحدهما الآخر القدرة على البقـاء والاستمـرار بما يخدم فهـم المستشرقين ومصالح بلادهم. وعلى العموم، فإن الشرق كان في نظر المستشرقين يجسِّد العالم القديم، فهو يحن إليه كما يحن إلى الفردوس. ففيه نشأت الأديان، وعرفت الحضارة مهدها الأول، وهذا ما رسَّخ الاعتقاد السائد لدى المستشرقين بأن الشرق موضوع أكاديمي وحقل اكتشاف.

ثم يتتبع المؤلف نشأة الاستشراق الرسمي، الذي وُضع مـوضـع التنفيـذ منـذ انعقـاد مجمع ڤيينـا الكنسي عـام (١٣١٢ م)، وهذا أوصى بتأسيس كـراسي الاستـاذيـة للعربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات بـاريس واكسفورد وبولونيا وغيرها. نقول الاستشراق الرسمي، لأن محاولة السيطرة على الشرق غارقة في القدم، تتعدى زمن هيرودوتس من المؤرخين والاسكندر من المحاربين. لكن المستشرقين، حتى منتصف القرن الثامن عشر، كانوا من الباحثين في التوراة، أو الدارسين للغات السامية، أو المختصين بالاسلام. وبعد ذلك التاريخ، أضحـت كلمـة الاستشراق أكثر شمولية واتساعاً، تشمل كل شي، من تحقيق النصوص وترجمتها إلى علم النقود، وعلم الانسان، وعلم الآثـار، وعلم الاجتماع والاقتصـاد، والتـاريـخ، والدراسات الثقافية لكل حضارة آسيوية أو شمالي افريقية. والمهم في الأمر أن معرفة الغرب للشرق بقيت «نَصيّة»، أي من خلال الكتب والمخطوطات، بل ازدادت نصيتها مما اقتضى وجود جغرافيا اوروبيـة متخيّلـة تقسِّـم العـالم إلى قسمين: أوروبي وهـو القـوي الفصيـح، وآسيـوي وهـو المهزوم النائي. والقوي يفصح عن الضعيف المهزوم ويمثله، والإفصاح والتمثيل حق مكتسب للقوي، بل قل من أبسط واجباته الحضارية. وخطورة المعرفـة الأوروبيـة للشرق، أنها كانت تخيلية نصية، أي معرفة مشرقنة، كما أرادها المستشرقون أن تكون، لا كما هي في الواقع والحقيقة. فالاسلام بالنسبة لهم «هـرتقـة آريـة» والنبي محمد «نـاشز لوحي زائف» كما يقرر غير واحد من كبار المستشرقين، أو أنه في العمق الثامن من أعماق الجحيم التسعة، لا يليه إلاَّ الشيطان وحده، كما يرى دانتي في الملهاة الإلهية. لذلك، قسم ديربيلو التاريخ في «المكتبـة الشرقيـة» إلى نـوعين: مقدّس، وكان فيه اليهـود والمسيحيـون، ومـدنَّس وفيـه المسلمون، كما يقول المؤلف. ومكتبة ديربيلو وملهاة دانتي من الثوابت التي يعرفها كل من درس الشرق أو تعامل معه. والاعتماد على النص المتخيل، خلق نوعـاً مـن «الانشـاء» الاستشراقـي أو المشرقـن، وهـذا مـا نجح في خلقـه المستشرقون.

ويلحظ المؤلف أن الشرق الأقصى لم يكن يشكِّل تحدياً لأوروبا حتى القرن التـاسـع عشر، لكـن الشرقين العـربي والاسلامي، وحدهما، واجهاها بتحدٍ لم تجد له حلاً على الصعد السياسية والفكرية والاقتصادية. فانكب الاوروبيون على دراسة الاسلام وشرقنته، وصياغة تعاليمه في نصـوص انشائية تخيلية أضحت ثـوابـت ومسلمات عنـد أجيـالهم. فـدراسـة الاسلام والشرق كـانـت لهضمهما واحتـوائهما واخضاعهما للسيطرة الاوروبية، خصوصـاً أنها اعتمـدت على النصوص الاستشراقية القديمة. فنابليون، مثلاً أدرك أن مشروع إقامة امبراطورية بونابارتيـة في الشرق قـابـل للتحقيق قبل أن تطأ أقدامـه أرض الشرق، لأنـه عـرف مصر تكتيكياً واستراتيجياً وتاريخياً ونصيّاً. وهذا يعني، أن مشروعه اكتسب في ذهنه وجوداً حقيقياً قبل أن يجسد حقيقة عسكرية على الأرض.

وتحت عنوان أزمات، يـرى المؤلـف أن «المعـرفـة

الاستشراقية كانت تعتمد أساساً على « النص » (الانشاء) لتركيز « السلطة »؛ وأكثر تلك النصوص كانت « تخيلية »، لا تصوِّر الواقع تصويراً مبدعاً أو حتى ناسخاً. فالشرق، كما نقله المستشرقون إلى قرّائهم، ليس كما هو في الواقع، بل كما شُرقن وخُطِّط له أن يكون. لذلك، أضحت عملية تطبيق النص الانشائي المشرقن على الشرق والشرقيين أزمة، خلقت عند الاوروبيين الشعور بالفوقية والدونية، وجعلت الشرق يُعاين بوصفه من مخلوقات الغرب التي يجب أن تُحكم وتُمثّل وتُوطأ بالمناسم.

والفصل الثاني، وهو بعنوان « **البنى الاستشراقية وإعادة خلق البنى** »، يشغل الصفحات: (١٣٥ - ٢٠٩)؛ ويشمل الأقسام التالية: ١ - حدود أعيد رسمها، قضايا أعيد تحديدها، والدين المعلمن. ٢ - سلفستر دو ساسي وأرنست رينان: علم الانسان العقلاني والمختبر فقه اللغوي. ٣ - الاقامة في الشرق والبحث، متطلبات المعجمية والخيال. ٤ - الحج والحجاج، بريطانيين وفرنسيين.

كان الاسلام وأقاليمه في نظر المؤلف يشكّلون محور الاستشراق الاوروبي حتى القرن الثامن عشر، لكن المستشرقين الذين جاءوا بعد ذلك التاريخ، وفلوبير بالتخصيص، جعلوا البنى الاستشراقية فرعاً من فروع المعرفة التي تنتمي بدورها إلى المعتقدات العلمانية وشبه الدينية. كما أنَّهم مهَّدوا الطريق أمام الاستشراق الحديث الذي ارتكز على أربعة عناصر: **التوسع**، كانت الدراسات الاستشراقية تكاد تكون محصورة في أقاليم الديانات السماوية، ومع القرن التاسع عشر، أخذت بالتوغُّل إلى خارج حدود العالم الاسلامي، لكن الفوقية الاوروبية سياسية كانت أم غير ذلك، بقيت في مقابل الدونية الشرقية. ونتج عن ذلك، التوسع الزماني والمكاني إذ حلّ محل الأطر النصية التي قلّ الاعتماد عليها. وإلى جانب التوسع، هناك **المجابهة التاريخية بين الحضارات**، « فمعرفة الشرقي » كانت تلقى التشجيع والدعم من الرحالة والمستكشفين، ومن المؤرخين الذين شجعوا المقارنة بين الحضارات الفوقية والدونية. ونتج عن ذلك، أن القدرة على التعامل التاريخي مع الثقافات غير الأوروبية، وغير اليهو - مسيحية حسب تعبير المؤلف، قد ازدادت قوة، وأصبح فهم أوروبا للشرق فهماً أكثر معقولية، وهذا يعني فهم العلاقة الموضوعية بين أوروبا وبين حدودها الزمانية والثقافية.

والعنصر الثالث هو ما يسميه المؤلف **بالتعاطف**، وذلك بأن يضطر الغرب تحت وطأة مصالحه، أن يقلِّل من حدّة الصراع الديني، وأن يتظاهر بالتعاطف مع مطالب الشعوب الشرقية ذات النزعة الانسانية. ونتج عن عملية التوحيد تلك وإن تكن ظاهرية، أن تخلّت أوروبا عن دور موظف الجمارك إلى حدٍّ ما، واكتسبت مفاهيم الترابط الانساني مفهوماً جديداً. ثم هناك **التصنيف**، وهو نزوع إلى تصنيف الطبيعة والانسان بحسب العرق والجنس والأصل واللون والمزاج والشخصية، ونتج عن ذلك أن تصنيفات البشر تجاوزت ما أسمي ذات يوم الأمم المقدَّسة والأمم المدنَّسة.

ورغم أن هذه العناصر تمثل اتجاهاً معلمناً خاصاً، فإن ذلك لا يعني أن الأنساق القديمة للتاريخ الانساني قد أُزيلت، بل أعيد تركيبها وتوزيعها، وأعيدت موضعتها ضمن أطر علمانية أوجبت وجود مفردات لغة علمانية تنسجم معها. وبإيجاز، فإن المستشرق إذ نقل الشرق إلى الحداثة، كان يرى في نفسه خالقاً علمانياً، وإنساناً صنع عوالم جديدة، خصوصاً أن تراثاً من الاستمرارية العلمانية سيتكوَّن، ونظاماً واعياً من المنهجيين الانضباطيين سيتحقق، سيِّما أن أخوَّتهم لا تقوم على وشائج القربى والدم، بل على إنشاء مشترك وعلى تطبيق عملي، ومكتبة، وطقم من الأفكار المتوارثة، كما يرى المؤلف.

وخطا سلفستر دو ساسي خطوات هامة في تحديث

تعود الصدامات الأولى بين أوروبا والاسلام ـ بشكل أساسي ـ إلى هذا الامتداد الجغرافي وتلك المركزية الحضارية، بيد أن هذه الصدامات التي سبقت المرحلة الصليبية بعدة قرون، لم تتجسَّد، لا في إسبانيا ولا على السواحل الايطالية والحدود الفرنسية، في معادلة عدائية كالتي تمظهرت، مع المشروع الصليبي، وأخذت وجهة دينية ـ حضارية، أسست بدورها ثنائية حضارية من نوع آخر: استبدال الثنائية الاولى (**مسيحية شرقية ـ مسيحية غربية**) **بثنائية ثانية (اسلام ـ غرب)**. وبالتالي، نقول باطمئنان ما سبق **لأرنولد** أن اختصره، عندما اعتبر الحركة الصليبية بوصفها «نصرانية الغرب اللاتينية على الشرق»، هذا الشرق الذي لم ترتبط به مسيحية الغرب إلاَّ عن طريق الاحتكاك المزدوج: «عن طريق الكنيسة الارثوذكسية والامبراطورية البيزنطية كحليفين لها»، وعندما «بادأت المسلمين في الشرق بعدوانها»، وبالتالي يصبح «العنصر الرئيسي المثمر أكثر من غيره في الحروب الصليبية هو هذه الحقيقة البسيطة، أعني غزوة الغرب للشرق»[٦٤].

قد تكون هذه الاستخلاصات متسرِّعة، بسبب ارتكازها على مقولة قديمة في الثنائية الحضارية، أو بسبب اكتفائها بتعددية سببية للمشروع الصليبي، إلاَّ أنها تقترب من الحقيقة التاريخية لحظة اندراجها في مجموعة النتائج والممارسات التي رافقت بداية الحركة الصليبية، واستمرت إلى ما بعد نهايتها. وقد تجسَّد كل ذلك وترسَّخ في تاريخية المشروع الافرنجي وحملاته ونهايته الايديولوجية. وندعم هذه الاستخلاصات بفكرة هامة، وهي أن الوعي الاسلامي منذ بدء الفتوحات إلى لحظة توقفها، كان قد استقر على مصير واحد بات يجمع مسلمي الشرق ومسيحييه، وبالتالي، لم تكن مطروحة على بساط البحث مهمة القضاء على المسيحيين، سواء أولئك الذين يجاورون أرض الاسلام أم أولئك الذين ارتضوا العيش في ظل خلافة المسلمين. كما أن التصفية الروحية بدورها لم تكن واردة إطلاقاً. ففي الاسلام «**لا إكراه في الدين**»، ولا تطال العداوة سوى الذين يرفضون «**الله**». ويظهر ذلك واضحاً في حقيقة أن المسلمين، وهم في أوج قوتهم، لم يرغموا الآخرين المعترفين بالوجود الإلهي، وخاصة المسيحيين منهم، على اعتناق الاسلام. بالعكس تماماً، كان الدخول في الاسلام يتم عن اختيار وإرادة حرة، كما اشار الى ذلك مؤرخو الاسلام وكذلك مؤرخو الغرب على حد سواء[٦٥]. بل أكثر من ذلك، كان مسيحيو الشرق يتعاملون مع الاسلام كقوة محلية رئيسية، يتسابقون للتحالف معها واللوذ بحماها في كل مرة كانت تصل فيها خلافاتهم المذهبية ـ السياسية إلى نقطة الانفجار.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، وفي أعقاب الصراع الذي احتدم إثر احتلال البيزنطيين لانطاكية، بين حنا شمشقيق وبطرس الارمني، ومن بعده ابن أخيه جاجك الأول من جهة، وبين الامبراطور البيزنطي إثر احتلال الرّها مع ميخائيل السرياني، من جهة ثانية. وصلت المذاهب المسيحية الشرقية إلى خيارات معقَّدة: إمَّا القبول بسيطرة الكنيسة الارثوذكسية على الأرمن والسريان واليعاقبة، وإما أن يبحث هؤلاء الأخيرين عن حليف

خارجي ينقذهم من أطماع بيزنطة المذهبية. ولمّا كان السلاجقة المسلمون قد تقدّموا في بلاد المسيحية دون إرغام معتنقيها على تغيير معتقداتهم، فإن الأرمن والسريان لم يترددوا في الانحياز مباشرة إلى جانب الموقف الاسلامي ضد البيزنطيين؛ كما لم يخفِ الأرمن إعجابهم بملكشاه، وارتياحهم لنتائج معركة مانزكرت. ولم يتردد ميخائيل السرياني في إعلان فرحه من هزيمة رومانس الثالث على يد المسلمين قرب حلب عام (١٠٣٠ م). وقد تكرّرت المواقف نفسها أثناء بدء التقدم الكاثوليكي، حيث سارع الأرمن والسريان للتحالف مع الكاثوليك ضد الارثوذكس، أي تحديداً مع الغرب المسيحي ضد الشرق المسيحي، وليس ضد الاسلام بالدرجة الأولى[٦٦]. إضافة إلى كل ذلك، أثارت محاولة بيزنطة للعب الورقة الأخيرة، في منطقة خرجت بشكل نهائي عن سيطرتها التاريخية، تناقضات كبيرة داخل وحدة الموقف المسيحي نفسه، قبل أن تتحوّل إلى سبب لانفجار اسلامي ـ بيزنطي. ويتضح ذلك من واقع، أن «الحركة التي قامت بها الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر لاسترداد أراضيها، وتوطيد نفوذها في شرق آسيا الصغرى وفي بلاد الشام، أدت إلى استياء مختلف العناصر التي كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعيا للامبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك. وقد كان لهذا الشعور أثره في قيام الإمارات اللاتينية في الشرق، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين الارثوذكس»[٦٧]. توصل هذه الملاحظة الى تبيان الطبيعة السياسية المحيطة بعلاقة المشروع الاسلامي بمستقبل التواجد المسيحي في الشرق، إذ واجهت الدعوة الاسلامية منذ بدايتها قوتين سياستين أولاً، وتعاملت معهما على هذا الأساس: **بيزنطة وفارس**. على المستوى السياسي كان الصراع، وعلى المستوى الحضاري كان التفاعل والاستيعاب. لذلك، وبالنسبة للمسلمين على الأقل، لم تبدأ الحروب الصليبية إثر هزيمة الامبراطور البيزنطي هرقل في معركة اليرموك عام (٦٣٦ م)، كما أنها لم تبدأ رغم السجال البيزنطي ـ الاسلامي، وخاصة خلال أعوام (٩٤٤ ـ ٩٦٧)، لكنها بدأت بصورة فعلية عام (١٠٩٦) وانتهت عام (١٢٨٠)، عندما خسر الصليبيون آخر معقل لهم في سورية. باختصار، لقد بدأت عندما أتى الغرب إلى الشرق، وليس عندما تنافس الشرق على نفسه.

III ـ المواجهة والنتائج

عملياً، ومنذ فتح قبرص عام (٦٤٩) إلى نهاية القرن العاشر، كانت علاقة الخلفاء المسلمين بالامبراطورية البيزنطية هادئة، لم يعكّرها سوى محاولات محدودة ومتباعدة في الزمن، من قبل كلا الطرفين، لتثبيت كل واحد عند حدوده، أي أنها كانت في جوهرها مناوشات دفاعية مضمّنة رغبات هجومية متبادلة: سعي المسلمين للوصول إلى القسطنطينية بهدف ضمان الثغور السورية، وحنين البيزنطيين لاسترجاع ما سبق أن خسروه في بلاد الشام والجزر المتوسطية. مع التذكير بأن هذه المناوشات لم تكشف سوى عن عدائية سياسية متبادلة، ولم تأخذ

للأوروبيين والأميركيين أن يحمّلوا الاسلام ومعتقداته جريرة تأخر الشرق وانحطاط الشرقيين. فلا بد إذن من تصويب النظرية الاميركية إلى الاسلام والعروبة والشرق، وتصحيح النظرة الاستشراقية كلها بجعلها أكثر موضوعية، خصوصاً أن العالم العربي يرتبط بالعجلة الأميركية، حضارة وثقافة وسياسة.

وإذا كان كتاب الدكتور سعيد، قد انصب في مجمله على جهود المستشرقين ذوي النظرة «الصفيقة» إلى الشرق، فإنه لا يبخس أمثال «كليفورد غيرتز» و«جاك بيرك» و«مكسيم رودنسون» حقهم، فهؤلاء ما فتئوا يقومون بفحص المسلّمات، وبالنقد المستمر قبل الوصول إلى النتائج؛ وهذا أقصى ما نطلبه نحن من المستشرقين ليصلوا إلى الحقيقة.

وعلى العموم، فإن كتاب الاستشراق غني بمادته، ويعكس ثقافة المؤلف التي تستحق الاحترام، سيّما أنه موجّه إلى قراء العالم بأسره. فان يعرف المرء نفسه، وأن يعرف كيف يفهمه الآخرون، من الضرورات الهامة في عملية التعامل الصحيح والبناء المستقبلي. ويمكن القول، إن المؤلف قلّب الاستشراق على أوجهه المتعددة، مما جعلنا نتطلّع إلى ما قاله ابن رشيق في ابن الرومي: «كان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، ولا يزال يقلبه ويصرفه في كل وجه، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمح فيه لأحد...». ونحن نظن أن الدكتور سعيد نجح إلى حدّ بعيد في عمليتيْ «التقليب والإماتة»، أو أنه نجح، على الأقل، في طرح قضية الاستشراق برمتها طرحاً جديداً، بما أثار من معرفة وسلطة وإنشاء وحثّ على الرودان في دنيا الاستشراق من جديد. ورغم ذلك، فإن المؤلف وقع في «التعميم»، خصوصاً حين جعل هدف الاستشراق سياسي في المطلق، وحين رأى في الاسلام التحدّي الوحيد الذي واجهته أوروبا في الشرق، وحين حصر معرفة المستشرقين بشرق وهمي خيالي إنشائي نصيّ ومشرقن. وإلى جانب ذلك، يبدو أن اطلاع المؤلف على شرقنا غير كاف، لأن ثمة أفكاراً قررها المستشرقون «عنّا» فيها شيء من الصحة، وإن كان فيها الشيء الكثير من المبالغة.

وأمّا ما يختص بالترجمة، فإنها ليست سيئة، رغم النص الذي يعترض فهم القارىء في كثير من الأحايين، خصوصاً أن المترجم الدكتور كمال أبو ديب، اعتمد أسلوب الجمل المعترضة التي جاءت طويلة، ومثالنا على ذلك ما يقوله: «ولقد كان الفضاء الجغرافي للشرق ـ في الشكل البعيد الكلاسيكي والنائي زمنياً غالباً، والذي أعاد به المستشرق بناء الشرق، وفي الشكل الفعلي بدقة الذي عيش فيه الشرق الحديث، ودرس أو تخيّل ـ قد اخترق، أو صُيغ ودُرس، أو امتُلِك»[٣]. فالجملة المعترضة هنا طويلة لا تخدم فهم القارىء، وبالتالي فقدت مبرر اعتمادها كأسلوب توضيحي. ولعل مردّ ذلك إلى ما لحظه المترجم نفسه من صعوبة في مراعاة عقل المؤلف، وطبيعة اللغة الانكليزية، وإلى قصور في مفردات العربية السائدة، عن مجاراة تطوّر الغرب الثقافي والعلمي والتكنولوجي. وفي ذلك، يلتقي مع دعوات تطلق من هنا وهناك، تطالب بتطوير اللغة العربية وجعلها أكثر حداثةً وغنىً ومرانة، لذلك. فهو يستخدم عدداً من الصيغ والألفاظ والتراكيب يحمل بعضها دلالة واضحة للقارىء، وبعضها ذو دلالة تختلف عن دلالته في الاستخدام اللغوي المألوف، وبعضها لا دلالة محددة له في سياق اللغة العربية؛ يجمع تلك الصيغ والمصطلحات الجديدة في كشّاف خاص، قد تكشف الأيام عن ضرورتها في الاستخدام العربي.

الحواشي

(١) نشير إلى أن عدداً من الكتّاب سبقوا الدكتور سعيد في هذا المجال، نذكر منهم:
— Abdel Malek (Anwar). «Orientalism in Crisis». Diogene 44 (Winter 1963)

(٢) نذكر من الدراسات التي صدرت حول الكتاب في الدوريات العربية:
- أبو زيد (أحمد): « الاستشراق والمستشرقون » - مجلة عالم الفكر، العدد ٣، يوليو - أغسطس - سبتمبر، سنة ٧٩ م، (ص ٢٥٥).
- رزق (أسعد): « مقدمة في معاني الاستشراق » - مجلة شؤون فلسطينية، آب ٧٩ م، (ص ٢٣٦).
- سمعان (خليل): - مجلة مجمع اللغة العربية، نيسان ٧٩ م، م ٥٤، ج ١، (ص ٤٨٧).
- **شريح (محمود: « حول الحركة الاستشراقية »** - الفكر العربي المعاصر، العدد ٢، ت: ٢/٦/٨٠، (ص ٧١).
- صايغ (روز ماري): - قضايا عربية، م ٧، عدد ٢، ٥ أيار/ ٨٠ م، (ص ٣١١).
- سلامة (غسان): « عصب الاستشراق » - المستقبل العربي، العدد ٢٣، ك ٢ ٨١ م، (ص ٤).
- العظم (صادق جلال): « الاستشراق والاستشراق معكوساً » - دار الحداثة، بيروت، ٨١ م.

(٣) - سعيد (ادوارد): « الاستشراق »، ترجمة كمال أبو ديب، (ص ٢٢١).